من انطباعات الحج
في الشعر الشعبي الجزائري

إعداد | د. **أحمد قريق احسن**

المقدمة

على أنغام جميلة من طبع الموّال، وعلى ميزان بورجيلة الرائق، غنّى عميدُ الأغنية الشعبية الجزائرية الحاج **امحمد العنقا** القصيدة التي نَظَمَها بمناسبة حجَّته. القصيدة التي كتبها بين سنتي 1936-1937م، بعد آدائه لفريضة الحج خلال تلك السنة. ويقول: إن متتبعيه هم مَن أعطوا عنوان "المندوزة" لهذه القصيدة، وهو اسمُ الباخرة التي كان الجزائريون (مع المغاربة والتونسيين) يسافرون بها إلى الحجّ لسنواتٍ عديدة. والقصيدة وصفية تتحدث عن مختلف مراحل السفر من ميناء الجزائر، إلى وصول الركب إلى البقاع المقدسة. وكثيرا ما يرددها عشَّاقُ الموسيقى الشعبية.

وهذه القصيدة ليست هي الأولى في التراث الشعري الشعبي الجزائري. فقد سبقها عددٌ من القصائد، بعضُها اكتسب شهرةً وخرج عن المحلية ليُغَنَّى به في العديد من المحافل، وضمن العديد من فنون الغناء الشعبي المعروفة في المغرب الإسلامي: حوزي، آلة، ملحون، شعبي، ...

وبعضٌ من هذه القصائد مما يصف الشوق إلى تلك البقاع المقدسة والأراضي الشريفة التي خصّت بخطوات النبي الأكرم عليه الصلاة والسلام. من ذلك ما كان يغنيه الأطفال الصغار بمدينة الجزائر وهي أغنية شهيرة، وإن كانت تغنى بمناسبة المولد النبوي الشريف، إلا أنها تتوجه بالخطاب لحجاج البيت الحرام لتسألهم عن سيد الخلق عليه الصلاة والسلام:

يا طيـــور اللـــي طـارو ..... ف الـسمـــــا عـنـده داره
يـا حجـــــــاج بيت الله ..... إلا [إذا] شفتـــوا رسول الله
شفنـاه ورينـاه ..... فـــي مكه خلينـاه
يما يما كحليلـــي بالـمرود ..... نخرج برا نشوف سيدنا محمد
يده حمرا بـالخواتـم والحنه ..... طيـــر الجنه .. طيـــــر الجنه
هذا مـولـــــــودِنا ..... يفـــــــرح بنـــــــا
في مكه والمديـــنه ..... صـلّـــــوا عليـــــه

وقد يكون اختيارُ الشعر كوسيلة لوصف الرحلة لأداء فريضة الحج في كل مراحلها هو الأنسب لما يتميز به الشعر عن النثر في التعبير عن تلك الأحاسيس المرهفة والصادقة دون شك ولو كان دونه في إمكانية التوسع في الوصف والرواية. وفي هذا الباب لم يتأخر الشعر الشعبي عن نظيره الفصيح فقد ألف كبارُ الشعراء الشعبيين عيونَ القصائد وأجملها. وفيما يلي نقدم للسيدات والسادة القرّاء قصيدتيْن مما اشتهر من قصائد كبار الشعراء في الجزائر.

الأولى: للشيخ **امحمد بن امسايب**.

والثانية: للشيخ **امحمد العنقا**.

وكل واحدة منهما تصف ظروف الحج في عصر مؤلفها. وبالرغم من الفترة الزمنية التي تفصلهما إلا أنهما تعبران عن نفس الأجواء الإيمانية والروحية.

وهي في الحقيقة كنوز أدبية قبل كل شيء، تعبر عن أسمى ما يكنه المسلمون لأطهر بقعة فوق الأرض من شعور الشوق والإجلال

والحب والتقدير، لما لها من مكانة رفيعة خصها بها (عز وجل). ولما يستحضرونه عند ذكرها من آثار وسيرة وتضحيات سيد الخلق عليه الصلاة والسلام من أجل نشر نور الإسلام وتبليغ وحي اللّه تعالى للبشرية جمعاء. ليصبح موسم الحج أكبر مؤتمر عالمي سنوي تتلاقى فيه الأرواح قبل الأجساد في أسمى معاني التطهر والعطاء والبذل بالنفس والنفيس من أجل إرضاء اللّه والدخول في سلك عباده الطائعين الصالحين.

قصيدة الشيخ امحمد بن امسايب[1]

الشاعر هو **أبو عبد اللّه امحمَّد بن مسايب** (ت 1776م) المولود بتلمسان أوائل القرن السابع عشر الميلادي. أصوله فيما يقال أندلسية، وكانت أسرته مقيمة بحي باب الزير بتلمسان. تلقى تعليمه الابتدائي بمْسِيْد الحي فحفظ كغيره من طلبة عصره القرآن وتلقى مبادئ النحو والفقه.

ثم انتقل إلى الحياة العملية حيث اشتغل بالدرازة. وهنا تعلّق بابنة المعلّم صاحب الورشة التي كان اسمها **عائشة**، فكانت أولى ملهمات شعره، فتفتقت قريحتُه الشعرية وأصبح شاعرا معروفا بقصائده الغزلية، مما أدى إلى زجره بسبب تغزله بنساء كبار أعيان المدينة، وهو ما أدى به إلى النفي من المدينة واللجوء إلى المغرب. وبعد مدة عاد إلى تلمسان مختارا، ووقف شعره على المديح الديني محبذا موضوعات التوبة والتوسل والتصوف. فاشتهرت قصائده في الصنفين: الجد والهزل، وبقيت يتغنى بها في مختلف المحافل إلى يوم الناس هذا.

وقد طرق الشاعر **ابن امسايب** موضوع الحج في قصائد مختلفة من بينها هاته التي يصف فيها الطريق إلى الحجاز وبعض مناسك الحج، وهي القصيدة التي اخترناها، نقدمها لقراء مجلة "العصر" الأفاضل.

يـا الْورشـان أقصـد طيبَهْ ... وسلم على الساكن فيها
يـا الورشـان أقصد طيبهْ ... زور فاقد مرسم شيبه
لا تخمم فـي أمـر الغيبهْ ... ولا تحدث نفسك بها
يـا الورشـان اعزم بمشيك ... واتكل على اللّه وعليك
ذا الوصية بها نوصيك ... خذها واتهلَّ فيها
نرسلك من باب تلمسان ... سر في حفظ اللّه والامان
بعد ما تزور بلا تمنان ... كل من هو ولي فيها
زور قطب العُبّاد وزيد ... للسنوسي مولى التوحيد
لا تخلف من اهل اللّه سيد ... كلها واجب تحصيها
قل لهم يا جميع الصلاح ... ما ملكت صبر عقلي راح
جيتكم فيدوني نرتاح ... سرحوني نمشي ليها
قل لهم يا اهل الديوان ... راغبكم انا طاير في الآن
سرحوني ليها عجلان ... دخيل الزهرا وابيها
ودّع أهل التصريف وسير ... شرّق للقبلة خد الدّير
صاحب الحكمة والتدبير ... يمنع النفس ويحظيها
قصر اليوم يكفيك الوعد ... بات ليلة واصبح جداد
سِريا ورشان الاوكاد ... تسالـه وجُز عليها
قم قبل طلوع الزهره ... واقطع تليلات وهَبْره
مستغانم سلامي تقرا ... توصل القلعة بحصنها
وَادْها يسمى يلل ... تحتها بمياهو يهوْطل
على رحيها ديما سايل ... رايح على اليمِين يلقاها
قُم من ثمَّ امش دبّاب ... على يمينك اصبح رقّاب
راه سيدي عابد في الباب ... قبته جُوز توالِيها
قابله وانظره لحظه ... شَيًّا يعطيك به أَرْضَى
طِرْ وانزل واد الفضه ... مَيَّزْ الأرض زد معاها
مَيَّزْ الأرض واصبح شوّاف ... واعمد قبالة للعطاف
اقطع شلف سامِي الاجراف ... بَات من هذيك الجِهَه
اقطع المشروع وتهدف ... وزد من ثم لا تلهف
زُور سيدي احمد بن يوسف ... شوف مليانة وادخل ليها
قُم قبل طلوع الغرّار ... اَوْعَد المدفون في زكّار
باش تدخل عنده للدار ... زيارته لابد تعطيها
قُم يا طير امش عجلان ... باش توصل بُوحَلْوان
بات مكرم على ... عند ناس بلادك فيها
قُم قبل الفجر وبكّر ... ثم خارج ساعي لوَاد يجر
شُوف متيجة واستخبر ... البليدة بيّت فيها
زُور مُولَى ساكة نوصيك ... طِير من ثَم لبوفاريك
بالك تدرك على جنحيك ... ادخل بلاد الجير الزلها
بات زاهي وأصبح مسرور ... بين ما ومنازه وقصور
خُذ وعدة سيدي منصور ... قبَل ألا تدخل هيِّها
قُم كي تنحل البيبان ... لجزاير داخل فرحان
زُور سيدي عبد الرحمن ... بركته ينفعنا بِها
ليلة الجمعة اطلع للشيخ ... ترسلك وإذا كنت صريخ
توَرَّخْ مْنازلها توريخ ... واعرف الدار وارجع عليها
ادخل مزعنه يا صاح ... عندهم تمتع وارتاح
تنسقى من كيسان الراح ... من خمر الود اسقيها
قم يا طير جلوسك طال ... طير وانزل في جبال عمال
اخرج من البيبان وسال ... حوز مجانه خليها
اخرج من قصر الطير وروح ... تبلغ قسنطينة مشروح
ادخل وباب اللّه مفتوح ... كلها الناس تراعيها
قم يا طير ومناش تخاف ... ريح النفس وادخل الطاف
عندهم الادب طراف ... يعجبك صوت مواليها
قم يا طير وادخل تونس ... زور الباجي وبن يونس
تبات طول الليل مونس ... بهم النفس تسليها
اخرج على الباب واستخفى ... للمخمر ابن عرفه
بزيارته باطنك يصفى ... وكل هم يزول عليها
بالك اتهله يا ورشان ... حد ما تقرا فيه امان

(1) ديوان ابن مسايب، تحقيق الحفناوي أمقران السحنوني وأسماء سيفاوي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1989م، 105-100. وقد ترجم القصيدة إلى الفرنسية الأستاذ الدكتور محمد ابن أبي شنب: Bencheneb، Mohamed، Itinéraire de Tlemcen à la Mekke par BEN MESSAIB (XVIIIè siècle). Revue Africaine، 1900، T44، n° 238-239، pp. 261-282

كيف كانت نجع الغربان ... جوز وزور وخليها
خل الصحرا في هملتها ... زد لطرابلس ادخلها
انظر هواها وشغلتها ... وكيف تاويل مواليها
اخرج للباب عشيه ... انزل الديار المنشيه
قم يا ولد الطوبيه ... انزل احذاها ساميها
انتبه يا طير وتبين ... فاقد المنازل وتوطن
وشوف يا ظريف وتفطن ... امنين تأخذ وماجيها
تبع طريق الركب وروح ... دمعتك فوق الخد تلوح
والدليل مليّع مقروح ... ليعته واش يبريها
مر الفرقه ومر الشوق ... والهوى من لا ذاق يذوق
سر في حمى الشيخ الزرّوق ... نرسلك والنفس اعصِيها
قم يا طير ادخل برقه ... حزامك بلا شفقه
ذا الوطن فيه تعب ومشقّه ... حد ما يقدر يخفيها
كيف يا طير يكزن مشيك ... في الوعر بالعطش من يسقيك
لا رفيق معك يلهيك ... ولا نجوع تتسلى بها
بات ساير واصبح غوار ... في الفيافي واوطان قفار
ادخل مصر فيها اختار ... في الحسين دار اكريها
انزل مجاورهم يا صاح ... عندهم تتهنى وترتاح
زرهم كل مسا وصباح ... والمجالس لا تخطيها
راه امير الركب معول ... شاوش الكسوة والمحمل
انطق البراح وطبل ... سمعته الناس بوذنيها
سمعت الحجاج وقام ... لمت اشغالها واتفقت
مالت لمكه ما صبرت ... طارت جوارحهم ليها
شاوش المحمل والكسوه ... تبعته رجال ونسوه
ما بقات الدنيا تسوى ... عند ناس ما تهواها
اخرج على البيبان سريح ... مع العربان امش كالريح
شوف بعينيك الاركاب مليح ... الا قصر انزل وبات فيها
قم قيل ليل الفقرا ... وانزل على الدار الحمرا
ما ترى في الطريق غيورا ... والاحجاب قوي كاسيها
يا ظريف رفرف على عجرود ... وانزل على القبر المسعود
تبلغ القصد والمقصود ... وجميع من هو قاصد ليها
ديار العقبه ليها روح ... بالدليل والقلب المشروح
بالك بما في السر تبوح ... اكتم اسرارك واكميها
قم يا طير وارحل تحلال ... بعد العقبه انزل غلغال
بعد ما تقضي كل اشغال ... في الصباح رفرف خليها
سير من قبل الحر وقوم ... واطعن البيدا سرا تهوم
للحدوره يا غالي السوم ... امنين ما جاتك ساميها
من مغارات شعيب واوطان ... لازم تروح تصبح نشطان
زيد بعد ابيار السلطان ... منزل الكول خاويها
ما عرفت آش باقي يرجاك ... فراق كوره محنه وهلاك
بعد وادي النار وصينا ... كل دار علمناك بها
قم يا طير ارحل واعزم ... واوعد الربع فيه احرم
جرّد ثيابك وتقدم ... اقصد الوقفه وانويها
بات يا طير مع الجمهور ... في زهو وفرايح وسرور

تنسقى من كيسان خمور ... فرحتك يبليني بِها
بعد الفدي انزل بركه ... من التعب ريّح والحركه
ادخل من الواد لمَكَّه ... باشر البيت وقابلها
طوف يا طيري سبع اطواف ... بالقدوم وتبّع الاشراف
وانتبه يا كامل الاوصاف ... للحجر واستمسك بها
قم يا طير الوعد اوفى ... طر وانزل جبل عرفه
اغتنم مع الناس الوَقْفَهْ ... حجتك ثمّ توفّيها
قم يا طير ارحل لمنى ... بعد الطواف بلا منه
الافاضة فرض علينا ... زيد العمره اختم بها
بالك تهله كن لبيب ... وانظر الشمس منين تغيب
لين ما بانت لك يشرب ... في الفيافي عمده ليها
ادخل على الباب تنادي ... اقصد احمد سيد اسيادي
بعد الزوره يا مرادي ... البتول ما تنساها
قل بسم الله وتقدم ... على احمد صل وسلم
اغنم الزوره وتنعم ... فيه بالعين وزهيها
قل له يا طيب الانفاس ... جيت مرسول ند القرطاس
في الحشر تنده بك الناس ... واياك تقول انا ليها
طابعكم بغيت نديه ... لابن امسايب يتبارك به
يمسكه عنده ويخيبه ... لنهار الموت واهواها
يا ظريف ارجع عجلان ... تتباشر بك اهل تلمسان
للقاك تركب الفرسان ... يا الله احض مواليها
يا الورشان اقصد طيبه ... وسلم على الساكن فيها

قصيدة الْمَنْدوزَهْ

نَظْم الشيخ الحاج امحمد العنقا رحمه الله سنة 1936م

ولد محمد اويدير آيت واعراب المعروف باسمه الفني **الحاج امحمد العنقا** يوم 20 ماي 1907 بمدينة الجزائر.

ويعد من أكبر مطربي الأغنية الشعبية الجزائرية. أدى العشرات من الأغاني وقام بتسجيل العديد منها. أحدث تطويرا كبيرا في فنه مما قلده منصب رائد الأغنية الشعبية. تتلمذ على الشيخ **مصطفى الناظور** وحرص الأستاذ **أحمد بن زكري** على تعليمه مبادئ اللغة العربية. التحق في فترة من الفترات بالمعهد الموسيقي لمدينة الجزائر كأستاذ فتخرج عليه عددٌ من الشباب الذين أصبحوا من كبار مطربي الشعبي. من أشهر ما أدى أغنية (الحمد لله ما بقاش استعمار في بلادنا). توفي يوم 23 نوفمبر 1978م، ودفن في يوم مشهود بمقبرة القطار.

مطلع		
نبتدا نظامي باسم الله والصلاة على الهادي	سيد البشر	شافع العباد فَ الْحشر
صلى الله عليه ما شفاوا ثمادي	بغاية النظر	وما صب من السما مطر
وَالرِّضَا على اصحاب سيد الأسيادِ	السيد بوبكر	عمر وعثمان مشتهر
وعلي سيف الإله غايَةْ مرادي	مات بالغدر	
أنا في مديحهم بالصوت انّادي	طول العمر	فالقاهرات والدشر
فرحي فرح اليتيم بموسم الاَعْيادي	خاطري ظهر	
بالكعبهْ خاطري ظفر	محمد صابغ الشفر	

بيت	
يوم خروجي أنا والاحباب مَ البهجهْ	فَ المندوزهْ ركوبنا صار التعطيل
بتنا يوميـن بلا رواح قامت هرجهْ	فَ يوم الجمعهْ خرجنا باسم الجليل
في عنابة همنا ثم اتَّفجا	ركبوا الحجاج بالظرافهْ والتّاويل
رفدنا الما والمعاش الأمر اتْسَجَّى	مشينا فَ اللِّيلْ يَا احبابي بالتعجيل
في ذا التعطيل ناس تونس تترجى	في حلق الواد واقفين بحال ذليل

مطلع		
ركبوا العشاق بعد اشد التنكاد	عازم السفر	جاتنا الارياح والمطر
البحر مهوّل اهلك جمع العبادي	بأمر القهر	لا شمس تبان لا قمر
صلى الله عليه	محمد صابغ الشفر	

بيت	
ثلث ايام بعداد وصلنا برج اسْعيد	وحنا مَرضى ودايخين من البابور
بشروا الحجاج بالسرور وفرح جديد	بالراحهْ مْنَ الْبَحَرْ حمدوا للغفور
حَجَّاجْ الْغَرْبْ جاونا زَلّْ التَّنْكِيدْ	لقيناهم بازغاريت المشهور
فرحوا بينا وجاوبونا زيد نزيد	الغنيات ماشيين والفرح يدور
امْشِينَا فَ اللِّيلْ بَالْمَهَلْ كما تريد	على الآلهْ والمديح والند بخور

مطلع		
ليلة كاملة على السويس اكْمل زادي	شفت البدر	في سماه بشعاعه ظهر
حطوا لفنار والسفر صار ينادي	ما بقى صبر	شفوا الآلات والذكر
محمد صابغ الشفر		

بيت	
ثلث الليالي بالحساب وثلث إيام	وصلنا الجدة يا أحبابي وفرحنا
نادوا على النزول كل ذا دارُه حرام	لبيك ربنا من النار نجينا
الركوب على الجمال الدواب القدام	والي غني ذاك راح في المشينة
في بير طِوى كل حاج أخذا حمّام	استبركنا بيه فيه توضأ نبينا
قصدنا للبيت دخلنا من باب السلام	طفنا بيها بعد الطواف أسعينا

مطلع		
اروينـــا من زمزم نوينـــا طبّ الأجسـاد	مـــا يـــلـــه عبـــر	أحـلا من الحليـــب والثمـــر
والزيـــن ألـــي نظرت في كحلة لثمـادي	خـــــدها احـمـــر	حـاجبيـــن نونين في سطـر
مـحـمـــــد صـــــابغ الشـفـــر		

بيت	
شفت الزين يـا ملاح ما ريت شـي مثله	في حُسنْ الثواب جـالسة بين الخوذات
صدقـــوا الأشيـــاخ في وصافها ما قالوا	سلبت عقلـي ضحيـت مملوك فالحياة
نظرت في الجبيـــن هلال في كـمـــاله	حـــاجبين قواس والشفـر رجمه مـوات
الســـيف حبشـــي زاد الهمـي حالـه	والخـــد احمر بلا عكر طبعُـــه خنـات
والقـــد ســـرولة راه بـــان هيـــالُـه	ســـرها مفقـــود ما نظرته يا سـادات

مطلع		
من حبهـــا سمحـــت أهلـــي وولادي	ما يـــلـــي خـبـــر	للعـــاشق ســـري ظهـــر
الجبل عارفـــة قصدت وكمـل مرادي	طفيـــت ذا الـجمـر	لا مـــاء في الطـريق لا شجر
مـحـمـــــد صـــــابغ الشـفـــر		

بيت	
منيـــن تلميـــنا فيـــها يـا لحبـاب	ارجمنـــا الملعـــون من غلب الملكوت
سنـــة الخليـــل في الضاحية بيا صواب	ودعنـــاها بطواف زيـــنة لنعـــوت
للمديـــنة قاصديـــن حرمة النجيـب	باســـم الكريـــم الحي لا يمـــوت
للزيـــارة صـاحب الشفاعة في لحساب	محـــمـد الرشيـــد البدر المنعـوت

بيت	
نطقت وقلت ليه	
السلام عليـــك من أهلـــي وولادي	مـــا فيـــنـــا شـــي من نكـــر
السلام عليـــك من نـــاس بـلادي	مـــن إنـــاث والـــذكـــر
السلام عليـك يـا الرســول الهـادي	مـــن جـــاب أكتـــابنا ظهـــر
السلام عليـــك يـا غـايـة مـرادي	يـــا طـــه سيـــد البشـر
السلام عليـــك يـا نـــور اثـمـــادي	يـــا شـــافع العبـــاد من الجمر
السلام عليـــك يـا غيْـــث زادي	يـــا طبيـــب العـــلات والسطر
السلام عليـك فـي ذيـك وهـاذي	يـــا بو المعجـــزات فـالقمـر
السلام عليـك يا سيـد الأسيـادي	أعـــداد الـــبـــر والـبحـــر
الســـلام عليـــك يـا مـحـمـــد	يـــا بحـــر الجـــود والنصر
السلام عليـك فـي جمـع إنشـادي	بيـــك نعزمـــت يـا بصر
سلامي للأشياخ من صميـم أكبـادي	بـالنسيـــم الـــورود والـــزهر
اسمي نوريـــه فـي تـمـــام انـشـــادي	العـــنقـــاء طـــالب الستر
والمغـفـرة تكـــون في ذيـك وهـاذي	الهيـــبـة والســـتر والـوقـــر
ويكـــون رزقـــي حلال يبلـــغ مـرادي	لا تْـحَوّجـــنـــي للـبشـر

مطلع		
صـــل الله عليه مـا شفـــاو ثمـــادي	بغـــايـــة النظـــر	محـمـد صـابغ الشـفـــر